

سويته حين يعود إلى ممارسة الأعمال التجارية، وحوله زوجة وفيّة وإرث من العقارات والأطيان، وولد يحمل اسم العائلة ورمزها - العم - واهب الميراث.

هكذا، تنفي الرواية عن ذاتها أية خصوصية فلسطينية، فالشخصية الأساسية عربية غير فلسطينية، والشخصيات الأخرى عربية ويهودية من غير الفلسطينيين. ثم إن المكان الروائي لم يكن فلسطين، وبالتالي فإن زمن الحدث الروائي وأجواءه وتفصيله ظلت تنأى عن تلك الخصوصية.

رغم ذلك، فإن الرواية لا تعدم قيمتها، من حيث كونها أول محاولة فلسطينية تطرق هذا الفن، لتطرح من خلاله مواقف ومفاهيم طبقة صاعدة. فالإيديولوجيا البورجوازية لا تستتر وراء غلالة الفن الرفيعة في هذه الرواية، وإنما تطرح نفسها بجدّة ووضوح: تقديس العائلة والعلاقات الأسرية، وتقديس الملكية الخاصة، وبحث مفاهيمها الأخلاقية، ثم رؤية التهديد القومي من قبل الحركة الصهيونية، من هذا الموقع الطبقي؛ وجود اليهود يهدد الأخلاق.. ويهدد الرأسمالية العربية..

لقد صدرت هذه الرواية بعد ثلاث سنوات من إصدار وعد بلفور الذي ينص على إعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين. وترافق صدورهما مع تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبدايات التحركات الوطنية في مواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني. فهل استجابت هذه الرواية لشرطها التاريخي أم أنها خانته؟

إنها رواية لم تستجب ولم تخن، بل وقفت على الهامش، تحاول الرصد فخذعتها الرؤية، وحاولت أن تقول فلم تصدر عنها سوى التأتأة الأولى. فهي لم تر الحركة الصهيونية بأطماعها الاستيطانية والتوسعية؛ بل رأت اليهودية - بنمطها التقليدي الشيلاوي - تتعبد لإلامها المطماع.. المال. فالشخصيات اليهودية في الرواية، جميعها: متكالبه على المال؛ انتهازية؛ جشعة؛ مبنزة؛ مستغلة؛ تهدد الحياة الآمنة المطمئنة لبطل الرواية العربي.

فهل قالت الرواية ما كان يجب أن يُقال في تلك الحقبة التاريخية؟

لعل الإجابة أصبحت واضحة، فالموقف الذي عبّرت عنه الرواية لم يكن نابهاً من فهم سياسي لطبيعة الأخطار المصدقة بالوطن من جراء الوعد والهجرة، أو من فهم أيديولوجي لطبيعة الحركة الصهيونية وأهدافها، بل جاءت لتعبّر عن موقف أخلاقي من اليهود، وعن هواجس البورجوازية ومخاوفها الطبقيّة..

ومع ذلك، فقد ظلت الرواية تمسك بخيط وإم يشدّها إلى واقع مجدد، وتشير - رغم رؤيتها المحدودة - إلى خطر داهم.. أت.

٦

وقد أسهم أحمد شاکر الكرّم في الجهود المبكرة التي مهدت لدخول فن الرواية إلى فلسطين، وذلك عن طريق الترجمة عن الإنجليزية والتركية، فقدم رواية «الفلسفة الشرقية